من المفاهيم الأساسيّة في التربية الحديثة:
«المشروع التربويّ بين الوهم والواقع»

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ(*)

مقدّمة

لا جدال في أنّ التربية ضمن إطار المدرسة والتعليم لها أهمّيّتها القصوى في المجتمعات الحديثة سواء أفي البلدان المتقدّمة أم في البلدان النامية، إذ إنّ التربية متداخلة بصورة وثيقة في الحياة الاجتماعيّة والعائليّة والسياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة... فالتربية هي نظام متكامل متواصل صاغه المجتمع ووضعه لنقل القِيَم والمعارف والمهارات إلى الأجيال الجديدة، وهي مجموعة من الأفعال والمؤثّرات التي يمارسها إراديًّا إنسانٌ على آخر، وهدفها يقضي بتكوين استعدادات لدى الكائن الشابّ تتطابق مع غايات نوعه أو جنسه، ومع ما يريد أن يفعله عندما يبلغ نضوجه.

ومع تنامي أهمّيّة التربية في عالم اليوم وتداخلها في عوالم الثقافة والاقتصاد والسياسة؛ ولأنّ للتربية مهمّاتٍ جليلة ليس أقلّها مشاركة العائلة والجماعة في إدخال الفرد ودمجه في المجتمع (socialisation)، وأنسنة هذا الفرد (humanisation)، وتربيته على قِيَم أساسيّة كالحقّ والعدالة والصداقة والثقة والإقدام، وكذلك تثقيفه من خلال التمدّن والتحضّر (culture)، أخذت الشعوب والدول تعدّ الخطط التربويّة والمشاريع التعليميّة لإنشاء

(*) مدير ثانويّة «سيّدة الجمهور» - رئيس تحرير المشرق.

المدارس وتنظيمها بما يتلاءم والحاجات المحلّيّة، وتضع المناهج التعليميّة التربويّة لتتناسب وحاجات تلك الدول، وتساعد الفرد المتعلّم فيها على تطوير قدراته وإنضاجها، فيصبح المواطنُ بعلمه وتربيته، بمعارفه ومهاراته، صاحب الدور الإيجابيّ في صنع المستقبل.

الخيارات التربويّة

واختيار تربية معيّنة هو في الأساس اختيار كيفيّة تحقيق نوع محدّد من الإنسان والمجتمع. ولأنّ التربية مرتبطة الارتباط الوثيق بوضعيّة المجتمع الذي هو أكثر من إطار لها، فإنّ النظريّات التربويّة المعاصرة نشأت لتجيب عن أزمة التربية في علاقتها بالمجتمع المعاصر. فمهمّة المدرسة اليوم، بحسب هذه النظريّات، هي اللحاق بالمجتمع المتطوّر بسرعة مستديمة. وهدف المدرسة، ثانيًا، هو التكيُّف مع المجتمع فتستطيع إذ ذاك، السيطرة على تحرّكه ونموّه، وتوجيه تطوّره. ولا شكّ في أنّ التقنيّات التربويّة والمنهجيّات المختلفة، مثل منهجيّة التناوب (alternance) التي توزّع التعليم بين المدرسة والمصنع أو المؤسّسة الإنتاجيّة، أو منهجيّة الأهداف التربويّة التي حوّلت التعليم إلى وحدات محدّدة المعالم واضحة الأهداف، هي تقنيّات ومنهجيّات تسعى لتكييف الأفراد مع وضعيّة المجتمع الحاليّ، مجتمع الثورة العلميّة الصناعيّة التقنيّة، مجتمع ثورة وسائل الاتّصال والإعلام. ولأنّ مجتمع اليوم، مجتمعٌ صناعيّ متقدّم، يقوم على مشروع معيّن محدّد، يهدف إلى توجيه المادّة نحو صيغة معيّنة من خلال تعديلها وتركيبها، فإنّ التربية، التي هي عملٌ على الإنسان أو عمل الإنسان على نفسه من أجل الوصول إلى حالة معيّنة، أرادت أن يكون لها مشروعها وخطّتها وشرعتها.

«المشروع» الثقافيّ

وكما أنّ لكلّ مصطلح من المصطلحات قصّة، فإنّ لمصطلح «مشروع» في الثقافة الأنتروبولوجيّة الحديثة قصّته أيضًا. إزدهر هذا

المصطلح منذ خمس وعشرين سنة تقريبًا في كتب علوم التربية وفي الكثير من وثائق وزارات التربية الرسميّة في الغرب، بعد أن كان قد نشأ في المؤسّسات الصناعيّة والتقنيّة الكبرى حيث يُلزم العمل الجماعيّ من خلال برنامج عمل واضح يوضع في يد فريق العمل لتحقيقه وإنجازه. فلكلّ مؤسّسة مشروعها وأهدافها في تحقيق بعض الأمور المعيّنة والإنتاج الظاهر، ولا بدّ أن يمرّ ذلك من خلال عمل جماعيّ.

ومفهوم «المشروع» كما هو متداول اليوم ومنذ الخمسينات تقريبًا، بوجه مباشر أو غير مباشر، هو ردّ على ما حصل من متغيّرات اجتماعيّة وسياسيّة عميقة الجذور إثر الحرب العالميّة الثانية والنهضة الصناعيّة العظمى التي نتجت منها. فمع نهاية تلك الحرب، انتقل العالم من نظام اجتماعيّ حياتيّ قائم على التقاليد والمؤسّسات الاجتماعيّة والعائليّة وعلى أولويّة الإيمان والشريعة الخارجيّة، إلى شكل جديد أخذ يغزو مدن العالم وشوارعه، ألا وهو مجتمع الاستهلاك والانتقال من القرية إلى المدينة، مجتمع وسائل الاتّصال والفرديّة.

هذا الانتقال لا يعني أنّ المجتمع التقليديّ قد زال، بل هو باقٍ على قيد الحياة، وما الأصوليّة إلاّ الجواب أو أحد الأجوبة عن الخطر الآتي من مجتمع الاستهلاك. فالمجتمع التقليديّ يعتمد الدفاع عن نفسه وعن مؤسّساته ونماذجه وقوانينه وعاداته، ويدعو إلى طرق للتفكير والعمل تكون طرقًا محدّدة ثابتة لا تتبدّل. وهذا المجتمع يدعو الجيل الجديد إلى التمثّل بالجيل القديم من خلال المحافظة على العادات والثقافة واللغة والمصطلحات، وروحيّة العائلة والدين والمعتقد... ممّا يعزّز الوحدة والوجدان المشترك والهويّة الثابتة غير المتقلّبة. فكلّ ما يسبّب الانشقاق والتعارض لا مكان له في إطار هذا المجتمع لأنّه خطر على الاستمراريّة والحياة المشتركة ذات التوجّه الواحد.

إلاّ أنّ هذا المجتمع هو في حالة الدفاع عن النفس، لأنّ الثقافة الآتية هي الثقافة الغازية، ثقافة المجتمع الصناعيّ الجماهيريّة وقد

اعتمدها، بوعي أم بدون وعي، الكثير من بلدان العالم الثالث. فمن المستحيل القول إنّ هناك من الدول أو الشعوب أو البلدان مَن هي بمنأى عن ذلك الخطر، حتّى ولو مُنِعت الصحون اللاقطة عن سطوح المنازل، . . . مع أنّها تعود لتزدهر ليلًا. فعقليّة المجتمع الصناعيّ التقنيّ المتقدّم تتواجد اليوم في كلّ مكان، حتّى ليُقال إنّها ظاهرة كونيّة. فمن سمات هذه العقليّة وخصائصها سرعة تأثيرها وفاعليّتها في النفوس، إذ تنقل الفرد بصورة فوريّة من عالمٍ إلى آخر، وكذلك سرعة حصول المستجدّ على أكثر من صعيد.

- في حقل التقنيّات، يلغي النموذج الجديد بفاعليّته المتقدّمة النموذج القديم: اختراع الوسائل الجديدة في عالم الاتّصال. . .
- في حقل العلوم، مع مطلع كلّ صباح يصدر الجديد وتتمّ أكثر فأكثر السيطرة على المجهول.
- في حقل القِيَم، هناك تبدلٌ سريع في سُلَّم القِيَم، من تراجع دور العائلة والدين، إلى تنامي الطلاق والتفسّخ الاجتماعيّ والفرديّة وتعاظم دور وسائل الاتّصال. . .

هذه المتغيّرات الحاصلة على أكثر من صعيد تهدِّد بفقدان الهويّة وتعاظم فقدان المرجعيّات وتفسّخ الجسم الاجتماعيّ المتماسك المتناسق قبلًا وتعزّز الفرديّة. في هذه الحالة، وإن تعاظمت العقلانيّة الفرديّة أو الجماعيّة، فإنّ الفرد يصبح تائهًا لا يعلم ما هو المطلوب منه في إطار الحياة العامّة، إذ إنّه فقد مرجعيّته القديمة ولم يستطع الحصول على مرجعيّة جديدة يستند إليها فتوجّه حياته من خلال ارتباطه بالجماعة. من هنا نشأت الحاجة إلى «المشروع»، أي الإطار الفكريّ الإنسانيّ الاجتماعيّ الذي يحدِّد دور كلّ واحد ودور المؤسّسة وغايتها وأهدافها، حتّى ولو استقى ذلك المشروع أفكاره الأساسيّة من مراجع لها علاقة بالمجتمع التقليديّ. فالمشروع الفرديّ أو المؤسّساتيّ هو درعٌ للحماية، وهو غطاء لمجابهة الخطر الآتي من عالم مجتمع الاستهلاك وقوانينه، وهو السبيل إلى مجابهة أزمة الإنسان المعاصر مع نفسه، الذي أصبح

ألعوبة في نتاجه ومنتوجه وفقد بالتالي السيطرة على مصيره ومعنى حياته.

ولا شكّ في أنّنا نستطيع الإفادة من المعاني التي تتضمّنها عبارة «مشروع» في اللغة: فالمشروع في اللغة من «شَرَعَ» ويعني المسنون المسوَّغ، والمبيَّن، والمباشَر به، والمُسدَّد المُصوَّب...، وهو بالتالي مجمل الأفكار والتصوّرات والمعاني التي ينوي الفرد أن ينطلق بها إلى التحقيق بوجه نظاميّ متكامل. إلاّ أنّ هذا المدلول الذي استخرجناه من هذه العبارات لا يعبّر عن واقع المشروع، كما هو متداول في عالم التربية: فالمشروع هو مفهوم مركزيّ في وجود الإنسان، إذ إنّه يعبّر عمّا يريده الإنسان أو ما تتصوّره المؤسّسة لنفسها. فالمشروع، من هذا المنحى، مؤسَّسٌ على تصوّر فلسفيّ قريب من الوجوديّة التي جعلت منه خاصّيّة الكائن الأساسيّة وطريقة معيّنة يجيب من خلالها الفرد عن متطلّبات الواقع حيث هو موجود، فيصبح لذلك الواقع المعنى الأكيد، ويصبح هذا المعنى مصدر الخيارات الجزئيّة، وهي الطريق إلى التكوُّن الحرّ والسبيل إلى أن يبني الفرد نفسه بنفسه. فالمشروع هو همّ أساسيّ من هموم الإنسان، الإنسان المعاصر في المجتمع المعاصر.

وهكذا فإنّ كلمة «مشروع» دخلت حديثًا، بمعناها الحاليّ، في إطار الثقافة والعلوم التربويّة، إذ إنّ كبار التربويّين أخذوا يستخدمون هذه العبارة بصورة مباشرة أو غير مباشرة منذ منتصف القرن الحاليّ، فكان لكلمة «مشروع» دلالتها الإيجابيّة وأضحت مرادفًا لكلمة تطوّر ونموّ، وأصبحت المقياس أو الميزان الذي يعطي القيمة العملَ الفعليّ والمنظَّم الذي يقوم به فرد من الأفراد يرمي الوصول إلى هدف محدَّد فيتّخذ الوسائط الضروريّة لتحقيقه. وإذا ما أردنا أن نحدِّد مفهوم المشروع، أشرنا إلى أنّه فعل استباق يفترض القدرة على تصوّر ما هو غير حاضر والقدرة على تصوُّر أو تخيُّل المستقبل كواقع محدّد من خلال تركيب سلسلة من الأفعال والأحداث المحتمل حدوثها، يتمُّ تنظيمها بوجه قبليّ (a priori) ومن دون اختبار مسبق لها.

أوجه «المشروع» الثقافيّ

ويتضمّن «المشروع» وجهين فيهما من التعارض والتكامل: فالوجه الأوّل يعبّر عن الغاية المطلقة ممّا يراد فعله، وهذه الغاية نفسها تعبّر عن الأسانيد والمراجع الفلسفيّة والأبعاد الثقافيّة ويتمُّ صياغتها في غايات وأغراض ومقاصد وأهداف متنوّعة. والوجه الثاني من المشروع هو وجه ذو طابع عمليّ وبرغماتيّ، يُعرف كذلك من خلال الأفعال التي يتمّ عرضها وشرحها، ومن خلال برمجة تلك الأفعال التي يجب تحقيقها. وهكذا فإنّ المشروع، بصورة عامّة أوّلًا، وعندما نتحدّث عنه بوصفه أداةً في عالم التربية ثانيًا، يتألّف من عنصرين: يتضمّن الأوّل بعضًا من اللاواقع أو المتصوَّر والثاني التخطيط الدقيق في أفقٍ توزَّع إلى وحدات واضحة المعالم ترتبط بأزمنةٍ مضبوطة.

وإذا كان «المشروع» يشير إلى ذلك الفعل المنوي تحقيقه والمضمر والظاهر والمسدَّد والمعبَّر عنه في آنٍ معًا، فإنّه الوسيلة والغاية الممكن صياغتها على الصعيد الفرديّ، والصعيد الجماعيّ، والصعيد الشخصيّ، والصعيد المهنيّ. فالحديث عن المشروع يتناول مشروع المجتمع أو المؤسَّسة ويشير أيضًا إلى مشروع التلميذ، أو مشروع التلميذ الشخصيّ، أو مشروع المعلِّم الشخصيّ أو مشروع الجماعة التعليميّة. المهمّ أنّ المشروع أصبح اليوم ضرورة في مجتمع ذي عقليّة وممارسات عملانيّة حيث إنّ كلّ شيء يخضع للبرمجة وبالتالي لوجهة معيّنة وتحقيق مجدَّد، وذلك مردّه إلى تصوّر الزمن تصوّرًا تقنيًّا، منذ عصر الأنوار وثورة العلوم الحديثة والدخول في عصر الصناعة والتقنيّات.

إنّ «المشروع» لا يعلن الغايات الرئيسيّة والقيَم الأساسيّة والتوجّهات الأصليّة والأهداف العامّة العملانيّة والوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف وحسب، بل هو يجيِّش الوجدان الفرديّ والوجدان الجماعيّ ويغذّيهما ويقوّيهما، إذ إنّ «المشروع» يصبح، في إطار الحوار والتشاور والتكوُّن المستمرّ، مشروع كلّ واحد من أفراد

الأُسرة التربويّة، ويضطلع به كما لو أنّه مشروعه الخاصّ (راجع الرسم البيانيّ الرقم - ١ -). فالمدرسة في الماضي القريب كان لها بنيتها ونظامها وهيكليّتها وتنظيم هو الأقرب من تطلّعات المجتمع وسُلَّم قيمه. فكلّ واحد كان له دور يعرفه جيّدًا ويعرف ما كان يتنظر منه الآخرون من دون أن يكون هناك مشاريع مكتوبة أو مرسومة. إلاّ أنّ المتغيِّرات الاجتماعيّة - وقد سبق الحديث عنها - وأزمة انقلاب القِيَم وديموقراطيّة التعليم في الغرب وفي بعض بلدان الشرق والعالم الثالث، تدفع المدرسة إلى استعادة ذاتها والتأمّل في دورها وإلى رسم طريق المستقبل من خلال اجتماع الكلّ حول صياغة المشروع التربويّ الواحد وتحقيقه في مشاريع متنوّعة (راجع الرسم البيانيّ الرقم - ٢ -).

«المشروع» التربويّ

وعند الحديث عن «المشروع» في التربية، لا نستطيع التغاضي عن الدور الذي قام به جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢)، المربّي والفيلسوف الأميركيّ، في ربط «المشروع» بمفهوم الحرّيّة والديموقراطيّة. فديوي يحدِّد الحرّيّة كقدرة وسلطة: «إنّها القدرة على إنجاب المشاريع، والتفكير السويّ وقياس الرغبات من خلال نتائجها وعواقبها. إنّها القدرة على اختيار الوسائل وترتيبها، إذ يستطيع الفرد متابعة تحقيق الأهداف بفضلها». وإذا كان «هدف التربية هو دومًا وأساسًا نفسه لم يتغيَّر، أن يُعطى الشابّ ما هو بحاجة إليه ليصبح بوجه نظاميّ ومتابع عضوًا في المجتمع»، فإنّ «التربية هي السبيل الأساسيّ للتطوّر والتقدُّم والإصلاح الاجتماعيّ». إنّ ديوي، في مجمل مؤلّفاته واختباراته التربويّة - وإن كانت موضع ملاحظات جدّيّة - يستند إلى عمل منظَّم في خدمة هدف معيَّن معلن عنه، وقد عبَّر عنه بالتعلُّم من خلال العمل (Learning by doing). والواقع أنّ ربط التربية بالمشروع تعبيرًا عن الحرّيّة الشخصيّة جعل التربية تقوم بنقلة نوعيّة من التعليم السلطويّ المنبريّ إلى التعلُّم كعمل مشترك بين المعلِّم والتلميذ. والواقع أنّ التربية، من خلال المشروع

رسم بياني رقم - ١ -

مستويات «المشروع» الخمسة

المبادرة إلى المشروع	نوعية العمل	مواقف أساسيّة	التصوّرات والمفاهيم
١ الشخص	يعلن عن القِيَم ويصرّح بالمبادئ ويجاهر بالنوايا الأساسيّة التي هي في أسس عمله ويحدّد الأهداف العامّة لذلك العمل.	إنّنا نعتقد إنّي أعتقد	الغايات والمعتقدات
٢ الجماعة	يحدّد الأهداف العامّة التي ينوي تحقيقها من خلال كامل عمله.	إنّنا نريد إنّي أريد	الأهداف العامّة
٣ المجموعة	يحدّد الاستراتيجيا العملانيّة أي الأهداف ذات الطابع العملانيّ، وهي أهداف تربويّة.	إنّنا نريد إنّي أريد	الأهداف العملانيّة
٤ المؤسّسة	يحدّد الوسائل المعتمدة الضروريّة والمساعدات المطلوبة والتوجيه اللازم.	إنّنا نعمل إنّي	شروط التحقيق
٥ المدرسة	تحقّق الأهداف ↑ وتقوّم ما تحقّق ↑	أعمل إنّنا نعمل	التحقيق والتقويم

رسم بياني رقم-٨-

نوعية المشروع	أصحاب المبادرة	حقل التحقيق	المؤسّسة	مدّة التحقيق
مشروع عمل تربويّ	المبادرون هم مجموعة من الأساتذة والتلامذة. المبادرة إراديّة ترمي إلى تحديد نشاط وصياغته في مشروع معيّن مقدّمة لتحقيقه.	يتمّ تحقيق المبادرة - المشروع مع مجموعة من التلامذة، وهي كناية عن نشاط له طابع اجتماعيّ (عرض مسرحيّ، دراسة البيئة، عرض أبحاث...). التحقيق يقوم به التلامذة والأساتذة معًا.	المؤسّسة المدرسيّة هي التي تحتضن بصورة واعية هذه المبادرة. يمكن أن تصاغ عدّة مبادرات في هذا المجال وفي المؤسّسة نفسها.	يتفق على المدّة. إلاّ أنّه من الضروريّ البرمجة الزمنيّة من بداية السنة الدراسيّة.
المشروع التربويّ	مجموعة من الجماعة التربويّة (الإدارة، الأساتذة، الأهل...) تصيغ مشروعاً يركّز على التلميذ كفردٍ في المجتمع، لا على تلميذ تكوّن نهائيًا	حقل التحقيق يتناول المدرسة وشبكة من الأماكن حول المدرسة حيث يستطيع التلميذ الانخراط بسهولة لاكتساب الاستقلاليّة وحسن المبادرة والحوار وعمل المسؤوليّة. مثلاً: العمل الاجتماعيّ	المؤسّسة المدرسيّة ومحيطها وشبكة علاقاتها بالخارج.	المدّة تتجاوز السنة عادةً.
المشروع التعليميّ	تقوم بهذا المشروع مجموعة من الأساتذة تعرف بالفريق التعليميّ. إنها النواة الصلبة التي تصيغ مشروع الممارسة المهنيّة التربويّة وتعمل على تحقيقه.	حقل تحقيق هذا المشروع هو المدرسة بكاملها أو في جزء منها. الحقل ليس الصفّ بحدّ ذاته بل الطرق التربويّة في ناحيتها المهنيّة.	المؤسّسة المدرسيّة في الداخل لجهة تطوير المهارات التربويّة لدى الأساتذة.	المدّة هي سنويّة أو تتجاوز السنة.
مشروع المؤسّسة التعليميّة التربويّ	هو المشروع الأساس، المشروع الأمّ الذي تستند إليه المشاريع الأخرى. فيه النوايا والأبعاد والغايات الأساسيّة لمعنى وجود المدرسة. المبادرون إليه أصحاب المدرسة أو مجموعة من المربّين فيها. وحده مجلس إدارة المدرسة يستطيع الصياغة النهائيّة وحقّ التعديل.	المشروع يتناول جميع الفاعلين في المؤسّسة وكذلك التلامذة والقدامى والأهل والفرقاء الذين لهم علاقة بالمدرسة.	المؤسّسة المدرسيّة تقوم بالإعلان عن هويّتها وأهدافها وغايتها والوسائل الأساسيّة لتحقيق ذلك.	المدّة تتوزّع على زمن طويل.
تعلّم وضع المشروع وصياغته	كل فرد له علاقة بذلك أو لديه حسّ المبادرة أو الإرادة أو النيّة.	الأنشطة التربويّة والتعليميّة في المؤسّسة.	المؤسّسة المدرسيّة بكامل فرقائها معنيّة بذلك.	لا تحديد للمدّة على أن تتجاوز الثلاثة أشهر.
مشروع التلميذ الشخصيّ	التلميذ يحوط به أحد الأساتذة أو الموجّهين في التربية. المدرسة المؤسّسة لها همٌّ أساسيّ في ذلك.	يتعلّق المشروع برضيّة التلميذ في المدرسة من الناحية الشخصيّة، وإدارة وقته ومنهجه والأساليب التي يستخدمها لوصوله إلى أهداف التعليم، وأهداف المؤسّسة وأهدافه الشخصيّة.	المؤسّسة لها علاقة بذلك، وكذلك الوحدات التي تهتمّ بالتوجيه.	متعدّدة السنوات.
مشروع المعلّم الشخصيّ	هو مشروع المعلّم الذي يريد أن يبني تدريسه على قواعد تؤهّله للنجاح.	حقل التطبيق هو كيفيّة ممارسة التعليم من خلال استخدام الوسائل التربويّة، والعلاقة بكلّ تلميذ، وكيفيّة التقويم (هل هو إنذاريّ فقط أم تكوينيّ أيضًا) وكيفيّة دفع التلميذ إلى المشاركة وكيف أرى الغايات الأساسيّة لمشروع المؤسّسة.	المؤسّسة تحتضن هذه المبادرة من خلال المزول عن مكتب التكوين المستمرّ.	سنويّة أو متعدّدة السنوات.

في مختلف صيغه وتنوّعها، تتيح الفرصة أمام المتعلّم أن يطوّر علاقة جديدة بمحيطه، يقدر بواسطتها أن يتحكّم في ذاته، وأن يترصّل إلى امتلاك قدراته وملكاته، وأن يعي تاريخه وأهدافه، وأن تكون معارفه بحثُ اكتسابًا له.

أسس «المشروع» التربويّ

وعندما نتطلّع إلى الأسس التي يقوم عليها «المشروع» في التربية، نجده يأخذ بعين الاعتبار الركائز التالية:

١ - بما أنّ «المشروع» هو وثيقةٌ تعرض لعمل مرتقب، فتبرّره وتشرحه، لا بدّ إذًا من أن يبدأ التأسيس بتحليل الواقع ودراسة الحاجات اللذين يعتبران الشرط الضروريّ لصياغة المشروع، والأرضيّة الثابتة التي ستُركّز عليها التوجّهات والأهداف. وبحسب أيّ مشروع، فلا بدّ من دراسة الأوضاع المحيطة كافّة من ماديّة وبشريّة ووسائل ممكنة وضغوط مرتقبة وغيرها...

٢ - التلميذ هو في صُلْب العمليّة التربويّة، وتصوّر المستقبل التربويّ التعليميّ، أيًّا كان ذلك التصوّر من ضمن مشروع معيّن، لا يتمّ من دونه أوّلًا - وهذا ضربٌ من العبثيّة - ولا يُوضع في الهامش، بل هو في وسط الحلقة. إنّ جدليّة المشروع تدفع بالمتعلّم، الفرد الإنسان، إلى الوسط، إلى صلب العمليّة التعليميّة التكوينيّة، والغاية المطلقة هي ذلك الفرد قبل غيره. هذا يفترض أنّ المهمّ أو مَن يسترعي الاهتمام أوّلًا هو الشخص، وأنّ التعليم لا بدّ أن يأخذ بعين الاعتبار الإنسان التلميذ كفرد مدعوّ إلى إنضاج شخصيّته.

٣ - لا يقوم المشروع إن لم يكن ثمرة حوار تربويّ يقوم به أفرقاء الأسرة التربويّة، حينًا بكاملهم وأحيانًا بعضهم، وذلك حسب نوعيّة المشروع وغايته. وبقدر ما يشمل المشروع الأفرقاء كافّة (الإدارة، المربّين، الأهل، القدامى، والأفرقاء الآخرين...) تكون الأهداف

والنوايا ثمرة حوار مشترك، فيتمّ تحديد غاية عامّة يشترك فيها جميع الأفرقاء وتكون لهم المرجع والأساس.

٤ - لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار عند وضع المشروع، وخصوصًا مشروع أو شرعة المدرسة أو مشروع المدرسة التربويّ، وظيفته أو وظائفه المتعدّدة التي لا بدّ لها أن تظهر في جانب من جوانبه. من هذه الوظائف الأساسيّة المرتبطة كلّها أو بعضها بالمشروع، نميّز التالية:

- الوظيفة الاقتصاديّة أو الإنتاجيّة، أي إنّ الموازنة المدرسيّة أصبحت مرتبطة بغايات تربويّة وبأهداف تحتاج إلى وسائل وقدرات لتحقيقها.
- الوظيفة المعنويّة، أي إنّ الأسرة التربويّة كلّها من طلاّب وتلامذة وأهل وأساتذة، يجتمعون بروح واحدة حول أعمال وأهداف معيّنة، من شأنها أن تعطي وجودهم في المدرسة أو ارتباطهم بها معنًى أكيدًا. فاختيار المدرسة يصبح هنا اختيارًا لأهدافها وروحيّتها ومشروعها التربويّ. حتّى الدراسة، على ضوء المشروع، يصبح لها معنى ومبرّر لأنّها مرتبطة بسياق أهداف وتصوّر عامّ.
- الوظيفة التربويّة التعليميّة التثقيفيّة، أي إنّ العمل التربويّ أصبح مشتركًا بين المعلّم والتلميذ، ومرتبطًا بأهداف معيّنة تتحقّق بالتتابع وبصورة مرحليّة، وبالتالي فإنّ التربيّة لم تعد أنّ «علينا أن ننهي البرنامج» وكأنّ هذا هو المطلوب وحدَه.
- الوظيفة السياسيّة الاجتماعيّة، أي إنّ المشروع التربويّ ليس وسيلة وحسب، بل إنّ التمرّس في وضعه وتركيبه وما يتبع ذلك من عملٍ على الذات من خلال علاقتها بالآخرين، وكذلك التعمّق فيه من جانب التلميذ والمعلّم على حدّ سواء؛ كلّ هذه الأمور تجعل من المشروع جزءًا من الكيان، وغايةً في حدّ ذاته، إذ إنّه يحضّر لمواطن الغد ويكوّنه عنصرًا مشاركًا فاعلًا في الحياة العامّة.

ملامح المشروع التربويّ العامّة هذه تشكّل نوعًا من الشروط أو العناصر الضروريّة المضمرة، التي لا بدّ من التوقّف عليها سعيًا إلى صياغة المشروع التربويّ الذي أصبح مشاريع متنوّعة كما هو مبيّن في الرسم أعلاه

رسم بيانيّ رقم - ٣ -

رؤية أخرى لمستويات المشروع الخمسة
في مشروع تربويّ جزئيّ

المستوى	التعرّف	أمثال
أ - الغاية	توجّه عامّ ينطبق على كلّ الحالات الممكنة وعلى كلّ الأفراد.	تحسين مستوى تنشئة الشبيبة وتكوينها.
ب - الهدف من؟ ماذا؟	يختلف عن أ إذ إنّه يحدّد حقل العمل والهدف بصورة أوضح.	تمكين ٨٠ بالمئة من الشبيبة في صفّ معيّن من النجاح في البكالوريا.
ج - كيف؟	هنا يختلف ج عن ب، إذ إنّه يحدّد الوسيلة للوصول إلى الهدف. يحتوي على التنظيم والمنهج والوسيلة والفاعلين للوصول إلى الغاية.	تنظيم دروس تقوية للحالات الصعبة طوال ٣ أو ٤ سنوات.
د - أين؟ مع مَن؟ كم؟	يختلف د عن ج لأنّه يحدّد المادّة التي يجب دراستها في فصول التقوية.	يختار بعضهم الحساب وبعضهم الآخر الآداب.
هـ - أين؟ مع مَن؟ كم؟ كيف؟ الزمن؟	يختلف هـ عن د إذ إنّه يحدّد عدد فصول التقوية والفصول التي يجب دراستها ثانية...	كلّ أساتذة الحساب والآداب سوف يشاركون في هذه الحملة بصورة دوريّة. عدد التلاميذ في الفصل لا يتجاوز العشرة.
		يلي كلّ مرحلة من ١٠ دروس تقوية امتحان لتقويم ما تمّ اكتسابه.

(راجع الرسم البيانيّ الرقم ٢)، وإن كانت المراحل هي نفسها في صياغة كلّ مشروع (راجع الرسم البيانيّ الرقم ٣). لن نسعى هنا لدراسة كلّ نوع من المشاريع أو وصفه وتعليله، بل إنّنا نتوقّف على بعضها.

أوّلًا: «مشروع» المدرسة التربويّ

إنّ كلّ مدرسة أو مؤسّسة تعليميّة تقوم بصياغة مشروعها التربويّ، فيحدّد على صعيدها ومن خلال خبرتها وهويّتها الثقافيّة والاجتماعيّة، الطرق الصالحة لتطبيق الأهداف والمناهج ذات الطابع الوطنيّ. فالمدرسة، أعامّة كانت أم خاصّة، مدعوّة إلى صياغة هذا المشروع بشكل يتوافق مع سياسة الدولة العامّة ومصلحة المواطنين. وهكذا يكون المشروع التربويّ، على الأرجح، وإذا ما تقيّد بالمقاييس الصحيحة، ذات طابع وطنيّ، حتّى ولو كانت صياغته ذات وجه إقليميّ أو مناطقيّ أو دينيّ أو اجتماعيّ محدود. فالعدد الأكبر من الأفرقاء مدعوّ إلى المشاركة في هذه الصياغة والموافقة عليه موافقة شبه إجماعيّة أو إجماعيّة ليكون كلٌّ واحد مسؤولًا عنه. والواضح أنّ هذا المشروع هو موضع تقويم من وقت إلى آخر، ليتحقّق الجميع من أنّ المشروع يتحوّل إلى مهارات يكتسبها التلاميذ وهذا هو الأهمّ.

ثانيًا: «مشروع» التلميذ الشخصيّ

إنّ هذا المشروع أو خطّة العمل التي يضعها التلميذ لنفسه بعد أن يكون قد قلّبها ودرسها بالضرورة مع المسؤولين في الإدارة التربويّة والمعلّمين تتضمّن وجهين: اكتساب المعارف والطريقة في الحصول على ذلك والنجاح كمًّا ونوعًا، والتوجيه الأكاديميّ والمهنيّ.

إنّ «المشروع» الخاصّ بالتلميذ ينطلق من البديهيّة التالية أو المسلّمة اللاحقة: التلميذ هو شخص، وهذا يعني أنّه ليس قربة فارغة ينبغي حشرها بالمعارف أو رأسًا فارغًا يلزم تخزينه أو محطّة استقبال المعلومات المعارفيّة التي يبثّها المعلّم. ما يميّز الشخص هو كرامته الشخصيّة، وما

يميِّز الكرامة هو القدرة الحاليّة أو التي ينبغي تقويتها على الأخذ بما هو سابق، وعلى إدراك الواقع الحاضر والتوجّه نحو المستقبل وفقًا لمعالم وأهداف معيّنة ترافق التلميذ. مشروع التلميذ ينطلق من رفض المقولة البائدة: «تعلَّم واخرس». وهو ينطلق أيضًا من تبدُّل في النظرة إلى الحافز أو الحوافز (motivation) التي تدفع التلميذ إلى العمل أو التي تقذفه إلى الأمام (النموذج الباليستي). والحوافز هي العلامات الزائدة مثلًا، والعلاوات، والقصاص والمكافآت. وهذا النموذج لا يزال له مكانه ومكانته في الحياة المدرسيّة، إلاّ أنّ ما ينقض التلميذ في الكثير من الأحيان هو القوّة الجاذبة، لا القوّة الدافعة وحدَها. والقوّة الجاذبة تتمثّل في الأهداف التي يضعها لنفسه بالاتّفاق مع معلّمه وموجّهه؛ هي المشروع الشخصيّ الذي يركّز انطلاقًا من الصفوف التكميليّة على نقاط الضعف في المسيرة المدرسيّة الشخصيّة ثمّ يأخذ منحى جديدًا (التوجيه الأكاديميّ الجامعيّ والسعي إلى اختيار المهنة) في الصفوف الثانويّة.

إنّ هذه النظرة إلى الحافز تحثّ التلميذ على توظيف قدراته في أهداف ينبغي تحقيقها، لا على استهلاك المعارف والطاقات للوصول إلى نتيجة جيّدة، إذا تمّ تطبيق مبدأ الثواب والعقاب من خلال النقاط والعلامات. ولا بدّ في هذا المجال أن يُساعَد التلميذ في اكتساب طريقة التقويم الذاتيّ، وفي اكتشاف الحواجز التي تمنعه من الوصول إلى المهارات. ومن الممارسات أو العناصر الأساسيّة التي تكوّن مشروع التلميذ نذكر:

- تعليم التلميذ على صياغة الأهداف من خلال تحليل واقعه داخل الصفّ وخارجه.
- التقويم التكوينيّ، وهو يشير إلى المرحلة التي بلغها التلميذ في الوصول إلى تحقيق أهدافه، في حين أنّ العلامة تكتفي بالإشارة إلى مقدارها الصحّ والغلط.
- تعزيز العقد التربويّ بين الأستاذ والتلميذ، والعقد يعزّز درجة معيّنة من الثقة بالذات خصوصًا عند التلامذة الذين لديهم صعوبات معيّنة.

- مساعدة التلميذ في اكتشاف الوسائل المنهجيّة التي تلائمه إن في الصفّ (تدوين رؤوس الأقلام، الانتباه إلى اللوح...) أو في البيت (مراجعة الدروس قبل الفروض، ضرورة وضع تصميم...)

إنّ مسيرة المشروع تتطلّب الكثير من الوضوح والجدّيّة والانتباه والحذر. لا بدّ من محاذرة أربعة أخطار تهدّد التلميذ:

- خطر الاختيار المسبق غير الناضج، وخطر الدخول في مشروع غير واضح المعالم.
- المشروع لجهة كونه قوّةً ضاغطة يعوق الخطّ الطبيعيّ لبناء الشخصيّة.
- الانحرافات ذات الطابع العاطفيّ التي قد تحصل في إطار غير صالح وغير مضبوط.
- تعزيز روح الفرديّة إذا ما انكمش التلميذ على نفسه.

ثالثًا: «مشروع» المعلّم التربويّ

إنّ ما يؤسّس مشروع المعلّم التربويّ هو ما يضفي المعنى على عمله والتزامه. إنّها التربية رسالةُ تكوين وتعليم وتثقيف وتهذيب ومساعدة الشابّ على إنضاج قدراته. إنّها ثانيًا الغايات والأهداف الأساسيّة التي يتضمّنها المشروع التربويّ للمؤسّسة التعليميّة التي يعمل فيها. وإنّها ثالثًا الأهداف المرتبطة بالمادّة التي يعلّمها والمسؤوليّة التي يتحمّلها. ويسأل المعلّم نفسه في مرحلة لاحقة: كيف أنظّم عملي التربويّ في الأمور التالية؟

- توزيع مستوى المنهاج وقابليّة التلاميذ، الممكن والضروريّ.
- كيفيّة استخدام الكتاب المدرسيّ والوسائل التربويّة التعليميّة المختلفة..
- كيفيّة شرح الدروس من خلال إعلان الأهداف بصورة واضحة والتثبّت من أنّ الأهداف قد تحقّقت.
- كيفيّة تقويم أعمال التلاميذ، مدى استخدام التقويم التكوينيّ ومدى استخدام التقويم الإنذاريّ.

- طريقة التعامل مع التلامذة ذوي الصعوبات المختلفة.
- ملاحظة الطرق التي تؤمّن النجاح وتفضيلها على الأخرى.
- ضرورة الحوار التربويّ الرصين مع المعلّمين الآخرين.
- ضرورة قبول التكوين المستمرّ.

هذه لائحة ببعض الأمور التي تهمّ المعلّم في صفّه ومعه، وهي في أساس عمله التربويّ. وهي تجعل من المدرّس مربّيًا ناجحًا وتَسِمه بهويّة تربويّة أساسيّة تختلف عن الوظيفة الإداريّة التي تؤدّي مهمّةً محدّدة في المكان والزمان.

رابعًا: «المشروع» التربويّ (الخاصّ بالمعلّمين)

إنّ هذا المشروع يضعه فريق من المعلّمين يقومون بتدريس مادّة معيّنة من الموادّ أو موادّ مختلفة. إنّه يتعلّق بمجموعة أو مجموعات محدّدة من التلامذة، وهو يتناول التربية (pédagogie)، أي في الوقت عينه، الطرق والوسائل والمحتوى. وهو يحتوي أهدافًا لا بدّ من تطبيقها وهي على نوعين: أهداف قصيرة الأمد تركّز على مهارات واضحة محدّدة معارفيّة ينبغي الوصول إليها في وقت معيّن (في نهاية السنة المدرسيّة مثلًا)، وأهداف طويلة الأمد تتعلّق بعمل تربويّ يتطلّب الكثير من الوقت ولا بدّ من تحقيقه في مختلف الموادّ؛ كالاستقلاليّة، واكتساب طريقة البحث العلميّ، والتفكير والحكم الصائبين، والقدرة على التعبير الكتابيّ الجيّد إلخ... يتميّز هذا المشروع بتوافق الفريق التربويّ على مصطلحات واحدة وخطاب معيّن وعلى ممارسات وتصرّفات معيّنة واحدة، مع تطبيق تلك الأهداف المرامي على أوضاع خاصّة. المهمّ أن يبلغ التلميذ اكتساب مهارات محدّدة والتحكّم في أوضاع نستجدُّ عليه.

إنّ أمثلة المشاريع التربويّة هذه ونماذجها التي تأخذ طريقها إلى التحقيق، تدلّ على أنّ المشروع في التربية هو واقع حيّ وهو عملٌ تربويّ في حدّ ذاته يتلاءم وذهنيّة الإنسان المعاصر في مجتمعه وحياته العامّة، في

التزامه الاقتصاديّ والاجتماعيّ. إنّه يضع الإنسان أمام مسؤوليّاته وخصوصًا في قطاع مهمّ وأساسيّ في حياة المواطن وحياة الدولة المعاصرة. إنّه يضع الأهل والمؤسّسة التربويّة وكذلك الدولة ومؤسّساتها الرسميّة أمام مسؤوليّة بناء الإنسان الكامل المتحرّر من كلّ الشوائب. إنّه يتيح الفرصة أمام الدولة لأن تكون حاضرة فعلًا في ميدان الأهداف والغايات العامّة، ويؤسّس لاستقلاليّة نسبيّة يتمتّع بها الفاعلون المحلّيّون الاجتماعيّون أو الفاعلون داخل المدرسة التي تصبح المكان الأنسب لتعميق الحياة الديموقراطيّة وتحاشي التوتاليتاريّة الإداريّة العقيمة.. إلاّ أنّ «المشروع» يصبح وهمًا إذا تحوّل إلى أمر موضوع، إلى قرار فوقيّ، وهذا ما يتنافى مع روحيّة المشروع وفاعليّته.

من منشورات دار المشرق

قيد الطبع: في سلسلة «الفلاسفة والمتكلّمون العرب المسيحيّون - العصر الوسيط»، أبو رائطة التكريتيّ. بقلم الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.